

منهجُ القرآنِ الكريمِ في التعاملِ معَ الشبهاتِ

د. سعيد عمر عبود بن دحاج

الأستاذ المساعد للتفسير وعلوم القرآن

كلية التربية - جامعة حضرموت



جامعة الأندلس
للعلوم والتقنية

Alandalus University For Science & Technology

(AUST)

منهج القرآن الكريم في التعامل مع الشبهات

مقدمة :

الكتاب المبين تنفيذ الشبهات المضلة التي يعترض بها على الحق وأهله وتروج للصد عن سبيل الله وهده.

وهذا البحث الذي يحمل عنوان (منهج القرآن الكريم في التعامل مع الشبهات) جاء لكشف اللثام عن المنهجية القرآنية في تناول الشبهة والأساليب والطرق الناجعة في الرد عليها أو تفنيدها ودحضها، وقد تضمن البحث الآتي:

المقدمة: وقد تضمنت تعريف الشبهة وأهمية دراسة هذا الموضوع وموقع هذه القضية من الطرح القرآني.

المبحث الأول : نماذج من الشبهات التي تناولها القرآن الكريم.

المبحث الثاني : أصول في المنهج القرآني في التعامل مع الشبهات.

خاتمة البحث .

الحمد لله الممتن ببعثته خير الرسل محمد صلى الله عليه وسلم فأخرج به الناس من رق الشهوات وأسر الشبهات إلى نور الحق وهدى الآيات البينات، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيدهم وعلى آله وصحابه وأتباعه على الصراط المستقيم.

وبعد :

فبمقتضى سنة الابتلاء التي فطر الله الحياة عليها كان مما ابتلى الله به الناس فتن الشبهات وفتن الشهوات، فكما أن العبد مبتلى بمقتضى الشرعة باتباع الأوامر والتزامها فإنه مبتلى أيضا بتجنب الشبهات والتخلي عن الشهوات المحرمات، وهو سبيل لا مناص لأحد عنه بل لا مطمع في الوصول إلى رضوان الله وجنته إلا به .

والله سبحانه لم يترك الناس هملاً يخبطون في هذه الحياة خبط عشواء بل أوضح لهم السبيل وأبان المحجة وذلك بإنزال الكتاب الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^١، وحيثما يأتي النهي في كتاب الله عن شيء فإما أن يكون المنهي عنه من قبيل الشبهات أو الشهوات، والمتأمل في آيات الله البينات ينجلي له أن من مقاصد تنزل

^١ - سورة فصلت، الآية ٤٢.

تعريف الشبهة لغة :

(الشُّبُهَةُ: الالتباسُ. والمُشْتَبِهَاتُ من الأمور: المشكِّلاتُ)٢، (وَأَشْتَبَهْتُ الْأُمُورُ وَتَشَابَهَتْ التُّبَسَّتْ فَلَمْ تَتَمَيَّزْ وَلَمْ تَظْهَرْ وَمِنْهُ اشْتَبَهَتْ الْقَبِيلَةُ وَنَحْوَهَا)٣، وبهذا فالمعنى المضمن في مادة (شبه) هو الالتباس والإشكال وعدم التمييز.

تعريف الشبهة اصطلاحاً :

لا يبعد معنى الشبهة بحسب استخدامها ودورانها في كلام أهل العلم عن معناها اللغوي، يقول صاحب المصباح المنير: (وَالشُّبُهَةُ فِي الْعَقِيدَةِ الْمَأْخُذُ الْمَلْبَسُ سُمِّيَتْ شُبُهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ) ٤ وعرفها ابن قدامة المقدسي ٥ فقال : (حد الشبهة ما تعارض فيه اعتقادان صدرا عن شيئين مقتضيين لاعتقادين) ٦ وعرفها بعضهم بقوله : (ما يثير الشك والارتباب في صدق الداعي و أحقية ما يدعو إليه، فيمنع ذلك من رؤية الحق والاستجابة له أو تأخير هذه الاستجابة)٧.

القرآن شفاء لأمراض الشبهات والشهوات :

يحتاج الإنسان ليسلك جادة الطريق عقلاً مدركاً لحقائق الأشياء كما هي عليه وقلباً مريداً للحق مؤثراً له على ما سواه، وإنما يتطرق الانحراف والغي عن سوي الصراط من طريقتين فالأول فساد في التصور والإدراك وغبش في الرؤية والثاني فساد في الإرادة بحيث تميل بصاحبها إلى الشر والسيء، قد وصف الله سبحانه كتابه العزيز بالشفاء وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ ٨، يقول ابن تيمية ٩: (وَالْقُرْآنُ شِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَمَنْ فِي قَلْبِهِ

٢ - مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، طبعة البراعم للإنتاج الثقافي ص ١٣٨.

٣ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تأليف العلامة: أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي ط المكتبة العلمية - بيروت ٤٣٢/٤.

٤ - المصباح المنير للفيومي ٤٣٢/٤.

٥ - ابن قدامة المقدسي: الإمام القنوة موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدم بن نصر المقدسي الجماعلي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي صاحب المغني، ولد في شعبان سنة ٥٤١هـ، كان من بحور العلم وأذكى العالم، وقال ابن النجار: (كان إمام الحنابلة بجامع دمشق وكان ثقة حجة نبيلاً)، وتوفي يوم عيد الفطر سنة ٦٢٠هـ (سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ١٧٢ / ٢٢، والمقصود الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ١٥ / ٢).

٦ - مختصر منهاج القاصدين للإمام أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، طبعة المكتبة القيمة للطباعة والنشر والتوزيع، صفحة ٩٤.

٧ - أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة ١٤٢٣هـ ص ٤٢٦.

٨ - سورة الإسراء، الآية ٨٢.

٩ - ابن تيمية: شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحزاني، الإمام العلم المجدد المجتهد الحنبلي المجدد بعيد الصيت، عني بالحديث وخرج وانتقى وورع في الرجال وعلل الحديث وفقهه وفي علوم الإسلام وعلم الكلام وغير ذلك وكان من بحور العلم ومن الأذكى المعدودين والزهاد والأفرد ألف ثلاثمائة مجلدة وامتحن وأوذى مراراً، ولد بحران سنة ٦٦١هـ، وتوفي سنة ٧٢٨هـ (طبقات الحفاظ للسيوطي ١ / ٥٢١، وتاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ٥٨٣).

أَمْرَاضُ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ فَفِيهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ مَا يُزِيلُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ فَيُزِيلُ أَمْرَاضَ الشُّبُهَةِ الْمُفْسِدَةَ لِلْعِلْمِ وَالنُّصُورِ وَالْإِدْرَاكِ بِحَيْثُ يَرَى الْأَشْيَاءَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَفِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ وَالْقَصَصِ الَّتِي فِيهَا عِبْرَةٌ مَا يُوجِبُ صَلَاحَ الْقَلْبِ فَيَرْغَبُ الْقَلْبُ فِيمَا يَنْفَعُهُ وَيَرْغَبُ عَمَّا يَضُرُّهُ فَيَبْقَى الْقَلْبُ مُحِبًّا لِلرَّشَادِ مُبْغِضًا لِلْعِيِّ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُرِيدًا لِلْعِيِّ مُبْغِضًا لِلرَّشَادِ^{١٠}

وتنزل القرآن بالشفاء من أمراض الشهوات والشبهات من رحمة الله بعباده فإن الشيطان لا يزال بالإنسان يزين له الشهوات ويستميله إليها ويلبس الشبهات قناع الدليل والحجة وما هي بحجج ولا أدلة، وهذا ما تجده لدى كثير ممن لبس عليه بالشبهات .

مصدر الشبهات :

بمقتضى سنة التدافع بين أتباع الحق وأتباع الباطل لا يألو المبطلون جهداً في الصد عن الحق وأهله فتجدهم يسلكون شتى السبل لتحقيق مآربهم في دفع الحق وإضعاف جانب أهله، ومن السبل التي يسلكونها التشغيب على الحق وإثارة الشبهات والבלابل حوله، ولا ريب أن هؤلاء في حريهم ودفعمهم في وجه الحق يجدون من ذوي النفوس الضعيفة من يتأثر بهم وبما يقولون، والدارس لسير أنبياء الله ورسله يجد من هذا الشيء الكثير وذلك حتى يعلم (أن إثارة الشبهات في وجه الدعوة إلى الله أمر قديم مضت به سنة الله في العباد وشنشنة قديمة متوارثة بين أهل الباطل فلا يستغرب منها الداعي ولا يضيق بها، وهي في جوهرها لا تتغير ولا تتبدل وإنما الذي يتغير فيها الأسلوب والكيفية، قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم محمداً صلى الله عليه وسلم : (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)^{١١} .

الموقف تجاه الشبهات:

لا شك أن تقنيد الشبهات وإظهار زيفها وبطلانها من الواجب على دعاة الحق وحملته، لأنها موانع تمنع من رؤية الحق في حق ضعاف البصر والبصيرة .. وتكون الإزالة بالحجة والبرهان، وبصراحة ووضوح وحسن بيان مع أدب بالقول ورفق في الخطاب . وخير سبيل يسلكه الدعاة إلى الله في التعامل مع الشبهات هو ما بينه المولى لنا في محكم كتابه وما جاءنا في آياته البينات من قصص الأنبياء مع أممهم وردهم على الشبهات التي يثيرها أعداء الدعوة وخصومها عبر تاريخ الرسالات.

^{١٠} - رسالة في أمراض القلوب وشفائها لابن تيمية.

^{١١} - سورة فصلت الآية: ٤٣.

^{١٢} - أصول الدعوة . د. عبد الكريم زيدان ص ٤٢٦ .

المبحث الأول: نماذج من الشبهات التي تناولها القرآن الكريم

تتوعد الشبهات التي تناولها القرآن الكريم، وهي رغم تنوعها لا تخرج جميعها عن الهدف الرئيس بل والوحيد الذي تثار من أجله ألا وهو الصد عن الحق وأهله، فهناك الشبهات المتعلقة بوحداية الله وأسمائه الحسنی وصفاته العلی والشبهات المتعلقة بدين الله وأحكامه والشبهات المتعلقة بالدعاة إلى الله من الأنبياء والرسل وأتباعهم وأخرى تتعلق بالبعث واليوم الآخر .

وسيرد في ما يلي نماذج من تلك الشبهات وليس الغرض من هذا البحث حصر واستقصاء جميع الشبهات التي تناولها القرآن الكريم، بل يكفي التمثيل بذكر جملة منها، ومن ثم إتباع ذلك بذكر جملة من الأصول والمعالم القرآنية في التعامل والرد على الشبهات وهذا ما سيتم تناوله في المبحث الثاني :

أولاً : اتهام الأنبياء بالجنون والسحر :

يقول الله تعالى عن الأنبياء السابقين وأمهم: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ (٥٢) أَتَأْتُونَ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾^{١٣} فالأقوام قبل قريش اتهموا الرسل الكرام بالسحر والجنون، وكذلك فعلت قريش لتفسير الناس من الداعي إلى الله محمد صلى الله عليه وسلم ومن دعوته فاتهمته بالسحر والجنون كما نسبت إليه من ذميم الخصال ما هو منها براء صلى الله عليه وسلم.

من الطبيعي أن توجه سهام الطعن لحملة منهج الحق في كل زمان ومكان وهذا ما يؤكد القرآن الكريم في كثير من المواضع، ويمكن تقرير هذا المعنى والوقوف على مقتضياته من عدة وجوه :

الوجه الأول : أن ذلك بمقتضى سنة التدافع التي سبقت الإشارة إليها بين المحققين والمبطلين، فإذا كان من شأن أهل الحق دعوة الناس إليه بشتى الطرق المشروعة؛ فإن المبطلين يروجون لباطلهم ويصدون عن سبيل الحق بالطرق المشروعة وغير المشروعة ومن هذه الطرق التشكيك في دعاة الحق وإثارة الشبهات حولهم.

الوجه الثاني: أن ما يحصل للدعاة من هذا القبيل هو ابتلاء يظهر به الصادقون في إيمانهم ودعوتهم والكاذبون الأدعياء، ولولا مثل هذه الابتلاءات لوسع كل أحد أن يدعي ويتشبع بما ليس فيه.

^{١٣} - سورة الذاريات: ٥٢-٥٣

الوجه الثالث: أن في مثل هذا النوع من الابتلاء لحملة الدعوة تربية على معاني التجرد لله فلا ينتصرون لأشخاصهم وذواتهم بل ينتصرون لدينهم ومنهجهم كما أن فيها تربية لحملة الدعوة على الاستعانة بالله حينما يصيبهم ما يصيبهم من الناس فتقلب المحنة في حقهم منحة وزلفى وقربى إلى خالقهم ومولاهم.

(فإذا فقه الداعي هذه الحقيقة ووعاها جيداً زال عنه العجب والحنق والغضب إذا اتهم بالتهمة الباطلة أو أثيرت الشكوك والريب حول دعوته، لأنه ليس أحسن حالاً من رسل الله ولا أفصح بياناً منهم ولا أكثر إخلاصاً منهم ولا أكثر تأييداً من الله تعالى منهم، ومع هذا كله أثار أهل الباطل ما أثاروه من الشبهات حولهم مما قصه الله تعالى علينا في أخبارهم) ١٤.

والشبهات التي تثار حول الرسول أو الداعية إلى الله متنوعة فمنها الطعن في شخصه وسيرته وسلوكه وإصاق التهم به، ومنه رميه بالسفه والجهالة والضلالة والجنون والافتراء إلى غير ذلك مما يكون المقصود منه تفتير الناس منه وعدم الثقة به. ثانياً: قولهم بأن أنبياء الله ورسله ما هم إلا بشرًا مثلهم وأنه يقبح بهم أن يتبعوا أمثالهم من البشر:

قال الله تعالى مورداً هذه الشبهة: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۗ ﴾^{١٥}، وقال سبحانه يحكي قولهم: ﴿ وَلَنْ أُطِغَمَ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ۗ ﴾^{١٦}، وقال سبحانه: ﴿ قَالُوا أَبَشَرًا مِثْلَنَا وَاحِدًا تَبِعَهُ إِيَّا إِذَا لَمْ يَلْمِزْهُمْ عَظِيمًا ۗ ﴾^{١٧}.

وقال تعالى يحكي عن مشركي العرب قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ۗ ﴾^{١٨}، والمعنى: ليس فيك فضيلة، ولا خصلة زائدة اختصت بها علينا، حتى تدعونا إلى اتباعك وتصديقك فيما تدعي، وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم من أهل الضلال والكفر، ممن عارضوا الرسل بهذه الشبهة، التي لم يزالوا، يدلون بها ويصولون، ويتفقون عليها، لاتفاقهم على الكفر، وتشابه قلوبهم.

^{١٤} - أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان ٤٢٧.

^{١٥} - سورة الإسراء الآية ٩٤.

^{١٦} - سورة المؤمنون الآية ٣٤.

^{١٧} - سورة القمر الآية ٢٤.

^{١٨} - سورة الشعراء الآية ١٥٤.

وقريباً مما سبق ما حكاه الله عنهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾^{١٩}، فهم يشغبون على أنبياء الله ويشككون في صدقهم بأنه لا فرق بينهم وبين غيرهم فهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وزادوا بأن وضعوا اقتراحاً من لدنهم زيادة في التشكيك وبتاً للريبة في النفوس الضعيفة، واقتراحهم هو أن يكون الرسل الذين يبعثون إليهم من الملائكة يعاينونهم ويشاهدونهم، أو على الأقل يبعث مع الرسول البشري رسول من الملائكة كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾^{٢٠}.

ثالثاً : إنكار البعث واليوم الآخر :

أثار المشركون كثيراً من الشبهات حول قضية البعث والحساب، وإعادة الحياة إلى الموتى، وقد ذكر الله تعجب المنكرين للبعث ووقوعه وتقولهم الأقاويل بغرض التشكيك والتكذيب فقال تعالى : ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) إِذَا مَنَا وَكُنَّا تَرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾^{٢١}.

وأعظم شبهة لدى منكري البعث هي استبعاد إعادة الأجسام بعد تمزقها، وتفتتها، ثم اختلاطها بأجزاء الأرض، يقول الحق جلّ شأنه، مخبراً عن ذلك الجحود العنيد والإنكار الشديد، ونسبتهم إلى قائله الجنون، أو الكذب والافتراء على الله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمْرِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفَتُرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾^{٢٢}.

رابعاً : التشكيك في حكم إيفاق المال في سبيل الله والتصدق به

جاء ذكر هذه الشبهة في قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اطَّعِمُوا مَنْ لَوْ بَشَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾^{٢٣}، وقولهم هذا بالإضافة إلى ما فيه من بث الريبة والشبهة فإن فيه أيضاً تهكماً بالمسلمين واستهزاء بهم فكانهم قالوا : لم لا يرزقهم

^{١٩} - سورة الفرقان الآية ٧

^{٢٠} - سورة الفرقان الآية ٢١

^{٢١} - سورة ق الآية ١-٣.

^{٢٢} - سورة سبأ الآية ٧، ٨.

^{٢٣} - سورة يس الآية ٤٧

إلهكم الذي تزعمون، أي نحن لا نطعم من لو يشاء هذا الإله الذي زعمتم أطعمه .. وهذا كما يدعي إنسان أنه غني ثم يحتاج إلى معونتك في مال فتقول له على جهة الاحتجاج والهزء به : أتطلب معونتي وأنت غني ٢٤.

خامساً : طعن أهل الكتاب في نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتشكيكهم فيها وهذا ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلا نؤمنَ لِرَسُولٍ حٰتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبٰنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾^{٢٥}، وهذه إحدى الشبهات التي أوردتها الكفار في الطعن في نبوته صلى الله عليه وسلم، وتقريرها أنهم قالوا: إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، وأنت يا محمد ما فعلت ذلك فوجب أن لا تكون من الأنبياء وهذا يدفعنا لعدم تصديقك أو اتباعك.

سادساً : التشكيك في حكم نسخ التوجه في الصلاة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام وجاءت حكاية هذا في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾^{٢٦} وما بعدها من الآيات، وجعل أعداء الدعوة من حكم النسخ هذا مدخلاً للإلجاج والتشكيك، فتارة يثيرون أن محمداً صلى الله عليه وسلم يتلاعب بالدين فكل يوم له قبة يتجه إليها، وتارة يطعنون في جناب الله سبحانه وينسبون إليه سبحانه ما لا يليق من الجهل - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وقد كانت فتنة أثرت على بعض ضعاف الإيمان حين نزول تلك الآيات بتحويل الوجهة في الصلاة من بيت المقدس إلى البيت الحرام.

فهذه نماذج من الشبهات التي عرض لها القرآن ولمن يريد الاستقصاء أن يقف على الكثير من الشبهات غيرها ولكن حسبنا في هذا المقام التمثيل بالمذكور منها .

^{٢٤} - ينظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق وتعليق: عبد الله إبراهيم الأنصاري والسيد عبد العال السيد إبراهيم، الطبعة الثانية دار الفكر العربي ١٢ / ٣٠٤ .

^{٢٥} - سورة آل عمران الآية ١٨٣ .

^{٢٦} - سورة البقرة الآية ١٤٢ .

المبحث الثاني: أصول في المنهج القرآني في التعامل مع الشبهات

الوظيفة الرئيسية إن لم تكن الوحيدة لكتاب الله تعالى هي هداية البشر إلى صراط الله القويم الموصل إلى جنات النعيم، المتمثل في شرعة الله وملته التي ارتضاها لعباده وهذا ما تنطق به آيات القرآن المتكاثرة.

وهذه الوظيفة ما كان لها أن تتحقق في دنيا الناس إلا من خلال المسارين :

المسار الأول: بيان معالم الحق والرشد في أجلى صورها لتكون منارات مركوزة بها يهتدي السالكون ويؤمها السائرون.

المسار الثاني : دفع المطاعن ورد الشبه التي توجه صوب هذه الشرعة والملة أو حاملها والمبشرين بها.

والمساران المذكوران وبالأخص الثاني منهما هو ما تقتضيه جدلية الحياة وحركة التدافع بين الحق والباطل في الواقع، وذلك أنه من البديهي أن يسلك الباطل وأهله والشيطان وحزبه كل طريق للتشغيب والصد عن الحق وأتباعه، ومقتضى ذلك تلقائياً أن يكون لدى الحق الرد الوافي والدواء الناجع الشافي لكل تخرصات وتقوليات وتشغيبات الباطل.

إن الإسلام بمفهومه البسيط علم وعمل كما أن الباطل والانحراف علم وعمل، والدخل والدغل الذي يطرأ على الدين أو المتدينين إما أن يكون في مجال العمليات وهو ما يسمى بالشبهات أو في مجال العمليات وهو ما يسمى بالشبهات والشهوات، كما أن الباطل بمزاحمته وتفوله على الحق يكون من أحد هذين الطريقتين الشبهات والشهوات وإذا كان العلم مقدماً على العمل ؛ لأن العمل فرع - كما هو مقرر - يكون لبحث هذا الأمر حق الاهتمام والتقدمة .

إن بقاء واستدامة الشبهات تتكاثر وتتعاظم مما يوقع الخلط لدى الناس ويروج إثرها سوق الضلال عن جادة الطريق السوي وتمحي مع تطاول الأمد وتوالي الأيام جملة من معالم السبيل وتنصب للسالكين معالم آخر يحسبونها الهدى ذاته فإذا جاؤوها لم يجدوها شيئاً.

يلاحظ المتأمل للقرآن الكريم أنه يكثر تناول الشبهات بالرد والتفنيد في السور والآيات التي تنزل عقب الأحداث الكبار التي مر بها الرعييل الأول وخاصة تلك الأحداث التي تصور للبعض أنها انكسار وانهزام كالذي جرى في غزوة أحد فتأتي

الآيات القرآنية لعلاج الجراحات النفسية من جهة وترميم ما احتاج إلى ترميم على مستوى التصورات السليمة الصحيحة.

وفي هذا درس للدعاة وأهل العلم ألا يتركوا الأمة في أوقات الأزمات والشدائد وتسلط الأعداء نهياً للوساوس الشيطانية والشبهات المقلقة المثبطة بل الواجب عليهم أن ينبروا للتذكير بمعالم الرشد والحق، والتثديد والتفنيد للمتبس الشبهات والأهواء، وإمامهم في ذلك كتاب ربهم ووجيه وهدام.

وإذا كان تفنيد الشبهات وردها منهجية قرآنية كما تقرر فإننا نلاحظ أن المتناولين لتفسير القرآن يعطون لهذا الجانب حظاً في تفاسيرهم فيقفون مع الشبهات التي تناولها القرآن وتعرض لها وهم في ذلك بين مقل ومستكثر، ولعل من أكثر هؤلاء ولوعاً بالشبهات وتناولها بالبحث الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب.

لقد تم استعراض نماذج من الشبهات التي تناولها القرآن الكريم في المبحث الأول، وجدير بنا أن نخلص إلى معالم وأصول للتعامل مع الشبهات ودحضها وتفنيدها وهذه المعالم والأصول مستنبطة في الأغلب من ذات الآيات التي وردت بذكر الشبهات فيما سبق وبهذا تعد معالم قرآنية في التصدي والتعامل مع الشبهات يمكن للمسلم أن يتخير الأنسب والأليق منها بكل مقام أو حال ومن هذه المعالم والأصول :

الأول : تعلم جواب الشبهة قبل ورودها تحصناً منها :

كان الله سبحانه وتعالى يعلم المسلمين ما يقولونه جواباً لشبهات الكفار قبل أن يلقيها الكفار ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾^{٢٧} فأخبرهم بقول المشركين سبحانه، قبل أن يقولوه ليعلمهم جوابه .. ومن هذا الباب أيضاً قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^{٢٨} ، والعلة في ذلك أن التنبيه على الشبهة وتفنيدها قبل طرحها من قبل الخصم مما يخفف من وقعها وأثرها في النفوس، ومعلوم أن الوقاية من الأمراض الحسية والمعنوية تفضل بكثير معالجتها ومعالجة آثارها بعد وقوعها.

^{٢٧} - سورة الأنعام الآية ١٤٨

^{٢٨} - سورة البقرة الآية ١٤٢

الثاني : عرض الشبهة ثم الرد عليها :

ومثال ذلك قوله سبحانه : ﴿ ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾^{٢٩} ، وهذا عرض للشبهة وعرض لما يتكئون عليه في إنكار البعث من جديد وهو كونهم استحالوا تراباً، وبعد ذلك يبدأ في الرد عليهم فيقول: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْفَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) نَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَوَرَّثْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَابْتَنَّا بِهِ حَتَّىٰ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾^{٣٠}.

فاذا علم أن لدى واحد من الناس شبهة ولو لم يذكرها ويقررها بأقصى ما يقدر عليه لبقيت تلك الشبهة في قلبه، وربما يخرج بسببها عن الدين؛ فإنه يطالب بتقريرها على أقصى الوجوه ويكون الغرض من ذلك أن يجاب عنها ويزال أثرها عن قلبه.

الثالث : أن يقرن بإبطال الشبهة وتضيدها بالتهديد

ومثال ذلك ما ورد في قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقَتْ كُلُّ مُمْرِقٍ إِنَّكُمْ لِنَعِيِّكُمْ ﴾^{٣١} (٧) أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْعَبِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنَ خَسِيفٍ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ نَسْفَاطٍ عَلَيْهِمْ كَسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾^{٣٢} ، فبعد دحض شبهة المنكرين للبعث وإيراد الدليل للرد عليها بقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أعقب ذلك بقوله: (إِنَّ شَأْنَ خَسِيفٍ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ نَسْفَاطٍ عَلَيْهِمْ كَسَفًا مِنَ السَّمَاءِ) ^{٣٢} ، والمعنى في هذا أن الغالب في من أضلته الشبهات وعدم بسببها الإدراك الصحيح هو صاحب هوى، وهواه هو الذي جعله يقصّر في تطلب الحق والأهدى من النجدين ومن هذا حاله يحتاج مع إقامة الحجّة عليه ودفع الشبهة عنه وتضيدها إلى تخويف وترهيب من عاقبة اتباع الهوى

^{٢٩} - سورة ق الآية ١-٣.

^{٣٠} - سورة ق الآيات من ٤- ١١.

^{٣١} - سورة سبأ الآيات ٧- ٩.

^{٣٢} - سورة سبأ الآية ٩.

والجحد للحق والتعامي عنه، ويؤكد هذا المعنى ما ختمت به ذات الآية : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ آيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾^{٣٣}.

الرابع : أن يقلب الشبهة على من يرى فيها حجة له حجة عليه

ومثال ذلك حكاة الله عن أهل الكتاب أنهم قالوا: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾^{٣٤} ولم يذكروا في تقرير ذلك دليلاً أو شبهة دليل، بل أصروا على التقليد، فأجابهم الله تعالى عن هذه الشبهة بذكر جواب إلزامي وهو قوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^{٣٥} (وتقرير هذا الجواب أنه إن كان طريق الدين التقليد فالأولى في ذلك اتباع ملة إبراهيم، لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم، والأخذ بالمتفق أولى من الأخذ بالمختلف؛ إن كان المعول في الدين على التقليد، فكأنه سبحانه قال: إن كان المعول في الدين على الاستدلال والنظر، فقد قدمنا الدلائل، وإن كان المعول على التقليد فالرجوع إلى دين إبراهيم عليه السلام وترك اليهودية والنصرانية أولى)^{٣٦}.

الخامس : المتعنت لا داعي للرد على شبهته بل يكفي زجره وإظهار تعنته

فحينما أراد اليهود أن يشككوا في صدق نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأوردوا شبهة من شبهاتهم وهي ما حكاها الله عنهم بقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِتْنَا أَلَا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِنَا بُرْهَانٌ نَّكُلُّهُ النَّارُ﴾^{٣٧} كان الجواب عن هذه الشبهة هو قوله سبحانه: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^{٣٨}، والمعنى أنهم يطلبون هذه المعجزة لا على سبيل الاسترشاد، بل على سبيل التعنت، وذلك لأن أسلاف هؤلاء اليهود طلبوا هذا المعجز من الأنبياء المتقدمين مثل زكريا وعيسى ويحيى عليهم السلام، وهم أظهروا هذا المعجز، ثم إن اليهود سعوا في قتل زكريا ويحيى .. وذلك يدل على أن أولئك القوم إنما طلبوا هذا المعجز من أولئك الأنبياء على سبيل التعنت، إذ لو لم يكن كذلك لما سعوا في قتلهم، ثم إن المتأخرين راضون بأفعال أولئك المتقدمين

^{٣٣} - سورة سبأ الآية ٩.

^{٣٤} - سورة البقرة الآية ١٣٥

^{٣٥} - سورة البقرة الآية ١٣٥

^{٣٦} - مفاتيح الغيب للرازي.

^{٣٧} - سورة آل عمران الآية ١٨٣

^{٣٨} - سورة آل عمران الآية ١٨٣

ومصوبون لهم في كل ما فعلوه، وهذا يقتضي كون هؤلاء في طلب هذا المعجز من محمد عليه الصلاة والسلام متعنتين، وإذا ثبت أن طلبهم لهذا المعجز وقع على سبيل التعت لا على سبيل الاسترشاد، لم يجب في حكمة الله إسعافهم بذلك، لاسيما وقد تقدمت المعجزات الكثيرة لمحمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الجواب شاف عن هذه الشبهة^{٣٩}.

السادس: أن الداعي يترك بعض ما فيه فائدة لدفع ضرر الشبهة الباطلة:

ومثال على ذلك ما قصه في حق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَمَا كُنْتُ تَلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِمِثْنِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطَلُونَ﴾^{٤٠} والمعنى في الآية أن الله تعالى أبعد رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم عن تعلم الكتابة والقراءة دفعا لما قد يتشبث به المبطلون فيدعون أن ما جاء به تعلمه من كتب قديمة قرأها واستسخها.. ورغم أن تعلم القراءة والكتابة فيهما نفع، ولكن دفع ضرر الشبهة الباطلة أكثر نفعاً، فقدم الدفع على هذا النفع.

ومعلوم أن الشبهة إذا أثرت بين الناس وشاعت فلا بد أن تترك أثراً في النفوس لاسيما الضعيفة والجاهلة والمتريصة، ويصعب عند ذلك مكافحتها والقضاء عليها إلا بجهد كبير، فكل ما يمنع حدوث الشبهات أو إعطائها ما تستند إليه مطلوب من الداعي ملاحظته واعتباره وأخذه وان فوت عليه بعض الفوائد، لأن القاعدة تقول "درء المفسد أولى من جلب المنافع" ويدفع أعظم الضررين بتحمل أقلهما^{٤١}.

السابع: الرد على شبهات منكري البعث والحساب

عُني القرآن الكريم بقضية البعث عنايته بقضية الوجدانية، فكما تعددت الآيات الدالة على إثبات الوجود الإلهي ووحدانيته فقد كثرت الآيات التي تقرّر البعث وتؤكد وقوعه.

وقد سلك القرآن الكريم لإثبات البعث مسالك مختلفة في طريقة العرض والاستدلال ومن تلك الطرق:

أولاً عرضه للقضية بأسلوبه الفطري السهل الواضح؛ لأنه خطاب للفطرة البشرية بما هو في متناول إدراكها.

^{٣٩} - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، طبعة دار الفكر / ٩ / ٢٦ بتصرف.

^{٤٠} - سورة العنكبوت الآية ٤٨.

^{٤١} - ينظر: أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان ٤٣٦.

ثانياً: أن يخبر عن وقوع ذلك البعث والحساب خيراً قاطعاً، مع عدم إيراد الدليل لوضوحه.

ثالثاً: أن يقرر لهم ذلك بتذكيرهم بعظيم وكامل قدرة الله تعالى على خلق الآيات العظيمة، من السماء والأرض وما هو أعظم من إعادة تلك الأجسام الضعيفة بعد تفرقها كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشَأَ نَحْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٤٢﴾ ، وهذه طرق ومسالك ينبغي تلزمها واستلهاها عند تفنيد الشبهات وردّها ودحضها.

الثامن: تقرير أن كل ما يحدث في الكون بإرادة الله ومشيئته وأن أفعال وأوامر الله سبحانه منزّهة عن العيب بل هي حكمة كلها :

وبهذا الأصل والتقرير رد الله سبحانه وتعالى على من أراد التشكيك في أمره بإفناق المال والتصدق به في سبيل الله وقول المعترضين والمشككين: ﴿أَطْعَمَ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴿٤٣﴾ ، فأخبر أنه ينفق فيعطي ما شاء بحكمة بالغة كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بَقْدَرٍ مَا يَشَاءُ ﴿٤٤﴾ ، وحكمة الله اقتضت تفاوت الناس في الرزق، فهو يقبض الرزق بمن يشاء، ويبسطه لمن يشاء، وأغنى قوماً، وأفقر آخرين، وأمر الفقراء بالصبر، وأمر الأغنياء بالعطاء والشكر .

وقد ضل بهذه الشبهة بعضهم، حتى قال:

كم عالم عالم أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي جعل الأوهام حائرة وصير العالم التحرير زنديقا^{٤٥}

والجواب عن هؤلاء وأمثالهم: أنهم لم يؤمنوا بالقدر ولم يسلموا للقادر سبحانه؛ ولذلك دخلت عليهم الزندقة وضلوا بالتباس الأمر عليهم من جهة هذه الشبهة.

التاسع: رد القرآن على من احتج على أن يُبعث أنبياء الله ورسله من البشر

حينما تتأمل النصوص القرآنية نجد أن القرآن الكريم رد على هذه الشبهة من عدة

وجوه وهي :

^{٤٢} - سورة سبأ الآية ٩ .

^{٤٣} - سورة يس الآية ٤٧ .

^{٤٤} - سورة الشورى الآية ٢٧ .

^{٤٥} - البيتان لنصرين أحمد المعروف بالخيز أريزي (ينظر كتاب غرر الخصائص الواضحة ص ٧٠).

- ١- أن الله اختارهم بشراً لا ملائكة لأنه أعظم في الابتلاء والاختبار، ففي الحديث القدسي الذي يرويه مسلم في صحيحه: (إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِيَّكَ بِكَ)^{٤٦}.
- ٢- أن في هذا إكراماً لمن سبقت لهم منه الحسنى من عبادته؛ فإن اختيار الله لبعض عباده ليكونوا رسلاً تكريم وتفضيل لهم، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾^{٤٧}.
- ٣- أن البشر أقدر على القيادة والتوجيه، وهم الذين يصلحون قدوة وأسوة، يقول سيد قطب^{٤٨} رحمه الله في هذا: (وإنما لحكمة تبدو في رسالة واحد من البشر إلى البشر، واحد من البشر يحسّ بإحساسهم، ويتذوق مواجدهم، ويعاني تجاربهم، ويدرك آلامهم وآمالهم، ويعرف نوازعهم وأشواقهم، ويعلم ضرورتهم وأثقالهم ..، ومن ثمّ يعطف على ضعفهم ونقصهم، ويرجو في قوتهم واستعلائهم، ويسير بهم خطوة خطوة، وهو يفهم بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم، لأنه في النهاية واحد منهم، يرتاد بهم الطريق إلى الله، بوحى من الله وعون منه على وعاء الطريق وهم من جانبهم يجدون فيه القدرة الممكنة، لأنه بشر مثلهم، يتسامى بهم رويداً رويداً، ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أن الله قد فرضها عليهم، وأرادها منهم، فيكون بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم، وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم، ينقلونها سطرراً سطرراً، ويحققونها معنى معنى، وهم يرونها بينهم، فتقفوا نفوسهم إلى تقليدها، لأنها ممثلة في إنسان)^{٤٩}.
- ٤- صعوبة رؤية الملائكة، فالكفار عندما يقترحون رؤية الملائكة، وأن يكون الرسل إليهم ملائكة لا يدركون طبيعة الملائكة، ولا يعلمون مدى المشقة والعناء الذي سيلحق بهم من جراء ذلك^{٥٠}. فالاتصال بالملائكة ورؤيتهم أمر ليس سهلاً، فالرسول صلى الله عليه وسلم مع كونه أفضل الخلق، وهو على جانب

^{٤٦} - أخرجه مسلم في صحيحه، طبعة دار ابن حزم - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ١٧٤١/٤ رقم الحديث ٢٨٦٥.

^{٤٧} - سورة مريم الآية ٥٨.

^{٤٨} - سيد قطب: الأديب الشهيد سيد قطب إبراهيم، صاحب تفسير (في ظلال القرآن)، ولد في قرية من قرى الصعيد اسمها (موش) سنة ١٩٠٦م، وهو من كبار قادة ومنظري الحركة الإسلامية المعاصرة، أعدم في عهد جمال عبد الناصر في ٢٦ أغسطس من عام ١٩٦٦م رحمه الله. (من أعلام الحركة الإسلامية المعاصرة، للمستشار عبد الله العقيل، ط١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م مكتبة المنار الإسلامية - الكويت ص ٦٤٩. علقا الفكر الإسلامي الشهيد سيد قطب للشيخ الدكتور عبد الله عزام رحمه الله، الطبعة الأولى - نشر وتوزيع: مركز شهيد عزام الإعلامي، بيشاور - باكستان).

^{٤٩} - في ظلال القرآن لسيد قطب، طبعة رقم ٢٤ سنة ١٩٩٥م دار الشروق / ٥/ ٢٥٥٣.

^{٥٠} - ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢٤ / ٧٠.

عظيم من القوة الجسمية والنفسية عندما رأى جبريل على صورته أصابه هول
عظيم ورجع إلى منزله يرجف فؤاده، وقد كان صلى الله عليه وسلم يعاني من
اتصال الوحي به شدة، ولذلك قال في الرد عليهم: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ
لِلْمُجْرِمِينَ﴾^{٥١}، ذلك أن الكفار لا يرون الملائكة إلا حين الموت أو حين نزول
العذاب، فلو قدر أنهم رأوا الملائكة لكان ذلك اليوم يوم هلاكهم .

فكان إرسال الرسل من البشر ضرورياً كي يتمكنوا من مخاطبتهم والفقه
عنهم، والفهم منهم، ولو بعث الله رسله إليهم من الملائكة لما أمكنهم ذلك قال تعالى:
﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانِ فِي الْأَرْضِ
مَلَائِكَةٌ يُمَشُّونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾^{٥٢} فلو كان سكان الأرض ملائكة
لأرسل الله إليهم رسولا من جنسهم، أما وأن الذين يسكنون الأرض بشر فرحمة الله
وحكمته تقتضي أن يكون رسولهم من جنسهم^{٥٣}.

العاشر: رد قول المشككين في الرسل وتبريرهم لتكذيبهم إياهم بأنهم يأكلون الطعام
ويمشون في الأسواق بأن هذا هو حال البشر والأنبياء منهم :

يرد القرآن على من يثير شبهة كون أنبياء الله ورسله بشراً وأنهم يأكلون الطعام
ويمشون في الأسواق بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نَوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾^{٥٤}.

إضافة إلى ذلك أنهم ولدوا كما ولد البشر، لهم آباء وأمهات، وأعمام وعمات،
وأحوال وخالات، يتزوجون ويولد لهم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾^{٥٥}.
ويصيبهم ما يصيب البشر من أعراض، فهم ينامون ويقومون، ويصحون ويمرضون،
ويأتي عليهم ما يأتي على البشر وهو الموت، فقد جاء في ذكر إبراهيم خليل الرحمن
لربه ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾^{٥٦}. وقال

^{٥١} - سورة الفرقان الآية ٢٢ .
^{٥٢} - سورة الإسراء الآيات ٩٥-٩٤ .
^{٥٣} - سورة آل عمران الآية ١٦٤ .
^{٥٤} - سورة الأنبياء الآية ٧-٨ .
^{٥٥} - سورة الرعد الآية ٣٨ .
^{٥٦} - سورة الشعراء آيات ٧٩ - ٨١ .

الله لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^{٥٧} ، وقال مبيناً أن هذه سنته في الرسل كلهم : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾^{٥٨} .

الحادي عشر : الإجابة عن التساؤلات عن الأحكام الشرعية والحكمة من تشريعها :

يكثر في كتاب الله ذكر التساؤلات عن جملة من القضايا والأحكام ، فكثيراً ما يرد لفظ ﴿سَأَلُونَكَ﴾ في كتاب الله ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾^{٥٩} وقوله : ﴿سَأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾^{٦٠} وقوله : ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَالِ فِيهِ﴾^{٦١} وقوله : ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾^{٦٢} وقوله سبحانه : ﴿سَأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾^{٦٣} وقوله : ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾^{٦٤} وقوله : ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾^{٦٥} .

هذه التساؤلات وأمثالها تجلي من جهة الحرص القوي لدى المسلمين في العهد الأول على معرفة أحكام التصرفات التي يمارسونها ومدى توافقها مع الشريعة التي تعبدتهم الله بها ، وهي من جهة أخرى تجلي مدى الكيد الذي كان يوجه للطعن في هذه الدعوة الناشئة والمنهج الجديد الذي بدأ يهيمن على النفوس ويصبغها بصبغته الجديدة؛ فإن جملة من هذه التساؤلات كانت (بسبب الحملات الكيدية التي يشنها اليهود والمنافقون ، والمشركون كذلك حول بعض التصرفات؛ مما يدفع بعض المسلمين ليسأل عنها ، إما ليستيقن من حقيقتها وحكمتها ، وإما تائراً بتلك الحملات والدعايات المسمومة . فكان القرآن يبتزل فيها بالقول الفصل؛ فيثوب المسلمون فيها إلى اليقين؛ وتبطل الدسائس ، وتموت الفتن ، ويرتد كيد الكائدين إلى نحورهم . . وهذا يصور جانباً من المعركة التي كان القرآن يخوضها تارة في نفوس المسلمين ، وتارة في صف المسلمين ، ضد الكائدين والمحاربين!)^{٦٦}

^{٥٧} - سورة الزمراة الآية ٣٠ .

^{٥٨} - سورة آل عمران الآية ١٤٤ .

^{٥٩} - سورة البقرة الآية ١٨٩ .

^{٦٠} - سورة البقرة الآية ٢١٥ .

^{٦١} - سورة البقرة الآية ٢١٧ .

^{٦٢} - سورة البقرة الآية ٢١٩ .

^{٦٣} - سورة المائدة الآية ٤ .

^{٦٤} - سورة الأعراف الآية ١٨٧ .

^{٦٥} - سورة الأنفال الآية ١ .

^{٦٦} - في ظلال القرآن لسيد قطب ١ / ٢٢٠ .

وهذا يؤكد كما سبقت الإشارة ضرورة التصدي لحملات الصد والتشكيك والظعن التي توجه للمنهج أو حملته، ووجوب التفهم لما يتداول واقعاً من أقاويل وتهاويل للحط من شأن المنهج الحق وألا يغرد الدعاة والمصلحون بعيداً عن الأطروحات المشككة التي تروج وتجد لها صدى عند الناس، وألا يحلق الدعاة بخطابهم بعيداً عن ما يشيع في الشارع ثم يفاجئون ولدى الجمهور ثم بانفضاض الناس والجمهور عنهم وعن دعوتهم واتباعهم لكل زاعق وناعق من دعاة الأهواء والمناهج الضالة.

خاتمة :

قد سبق تقرير وبيان أن الانحراف والضلال عن الهدى والرشد إما أن يكون سببه الشهوات الفاتنة أو الشبهات المضلة، ولكن مما يجب التأكيد عليه أيضاً أن الغالب على من ضل من طريق الشبهات أنه فتن من قبل عن طريق الشهوات ويغلب على من فسد تصوره بالشبهات أنه قد مال به الهوى وأقعده عن تطلب الحق واستفراغ الجهد في البحث عنه وبهذا يكون جمع بين الضلال من طريقه، نعوذ بالله من الخذلان.

وهذا الصنف المذكور حاله لا يكفي في شأنه إقامة الحجة والدليل ورد الشبهة والتضليل بل لا بد مع ذلك من زجر وترهيب وقرع للقلب بمذكرات الوعد والوعيد، وهذا ما نراه في مواضع من كتاب الله في تناولها لبعض الشبهات.

مما تجدر الإشارة إليه في ختام هذا البحث القول بأنه إذا كان من منهج القرآن رد الشبهة وتفنيدها وأن للقرآن أساليبه في تناول هذه الشبهات فإن هذا يوجب على أهل القرآن وأهل العلم تلزم تلك المنهجية والتصدي لرد الشبهات التي توجه للحق وأهله هذا من جهة ومن جهة أخرى وجوب الاستفادة من منهجية القرآن الكريم في التعامل مع الشبهات وإعطاء كل شبهة حجمها وتخير الوسائل والمسالك المناسبة لردّها وتفنيدها.

إن حملات التشويه والتشكيك الموجهة للإسلام وحملته ما زالت تشن من قبل تيارات شتى وكما هو مقرر أن ذلك معهود في تاريخ الرسالات والدعوات، وهي معركة لم تضع أوزارها ولم يهدأ أوارها بعد بل هي في اشتداد وأساليب وطرائقها إلى ازدياد ونطاق تأثيرها وتطاير شررها في امتداد، وقد تجلّى لنا من خلال البحث أن القرآن كان حاضراً وبكل قوة في هذه المعركة في الصدر الأول، ومن الأهمية بمكان تفهم هذا المعنى واستيعاب هذا الدرس، يقول سيد قطب: (القرآن كان دائماً في المعركة، سواء تلك المعركة الناشئة في القلوب بين تصورات الجاهلية وتصورات

الإسلام؛ والمركة الناشئة في الجو الخارجي بين الجماعة المسلمة وأعدائها الذين يتريصون بها من كل جانب .

هذه المركة كذلك ما تزال قائمة؛ فالنفس البشرية هي النفس البشرية وأعداء الأمة المسلمة هم أعداؤها، والقرآن حاضر ولا نجاه للنفس البشرية ولا للأمة المسلمة إلا بإدخال هذا القرآن في المركة، ليخوضها حية كاملة كما خاضها أول مرة، وما لم يستيقن المسلمون من هذه الحقيقة فلا فلاح لهم ولا نجاح!

وأقل ما تشئه هذه الحقيقة في النفس أن تقبل على هذا القرآن بهذا الفهم وهذا الإدراك وهذا التصور، أن تواجهه وهو يتحرك ويعمل وينشئ التصور الجديد، ويقاوم تصورات الجاهلية، ويدفع عن هذه الأمة، ويقيها العثرات، لا كما يواجهه الناس اليوم نغمات حلوة ترتل، وكلاما جميلا يتلى، وينتهي الأمر، إنه لأمر غير هذا نزل الله القرآن، لقد نزله لينشئ حياة كاملة، ويحركها، ويقودها إلى شاطئ الأمان بين الأشواك والعثرات، ومشقات الطريق؛ التي تتناثر فيها الشهوات كما تتناثر فيها العقبات^{٦٧} .

^{٦٧} - في ظلال القرآن لسيد قطب ١ / ١٨٠ .